المحاضرة السابعة (07): النقد وقضية الإعجاز

مفهوم الإعجاز في اللغة والاصطلاح:

: أعجزه الشَّيْء: فَاتَهُ، وَفُلَانًا: وجده عَاجِزا، أَو صيره عَاجِزا. ومعجزة النَّبِي: مَا أعجز بِهِ الْخصم عِنْد التحدي، وَالْهَاء للْمُبَالَغَة. والمعجز فِي وضع اللُّغَة: مَأْخُوذ من الْعَجز، وَفِي الْحَقِيقَة لَا يُطلق على غير الله أنه معْجزَة، أَي خَالق الْعَجز؛ وَتَسْمِيَة غَيره معجزا ك (فلق الْبَحْر) و (إِحْيَاء الْمَيِّت) فَإِنَّمَا هُوَ بطرِيق التَّجَوُّز والتوسع من حَيْثُ أنه ظهر بِقدر الْمُعَارضَة والمقابلة من الْمَبْعُوث إِلَيْهِ عِنْد ظُهُوره، وَإِن لم يكن هُوَ الْمُوجب لذَلِك تَسْمِيَته للشَّيْء بِمَا بَدَأَ مِنْهُ وَمَا هُوَ مِنْهُ بِسَبَب فِي ذَلِك، كَمَا فِي تسيمة مخلوقات الله دَالَّة عَلَيْهِ لظُهُور الْمعرفَة بِاللَّه عِنْد ظُهُورهَا وَإِن لم تكن دَالَّة فِي الْحَقِيقَة، إِذْ الدَّال فِي الْحَقِيقَة هُوَ ناصب الدَّلِيل، وَهُوَ الله تَعَالَى، والمخلوقات إِنَّمَا هِيَ أدِلَّة. وَخلق المعجز لَيْسَ لغَرَض تَصْدِيق الْمُدَّعِي، بل يعرف قيام التَّصْدِيق بذَات الله. وكما أَن هَذِه الْكَلِمَات الْمَخْصُوصَة صَارَت دَالَّة بِسَبَب الْوَضع والاصطلاح على الْمعَانِي الْقَائِمَة بِذَات الْمُتَكَلّم فَكَذَا هَذِه الْأَفْعَال الخارقة للْعَادَة إِذا حصلت عقيب الدَّعْوَى دَالَّة على قيام التَّصْدِيق من فعل المعجز، فالمعجزة من أفعاله تَعَالَى قطعا]

والإعجاز: فِي الْكَلَام أَن يُؤدى الْمَعْنى بطرِيق أبلغ من كل مَا عداهُ من الطّرق وإعجاز الْقُرْآن: ارتقاؤه فِي البلاغة إِلَى أَن يخرج عَن طوق الْبشر ويعجزهم عَن معارضته على مَا هُوَ الرَّأْي الصَّحِيح، لَا الْإِخْبَار عَن المغيبات، وَلَا [عدم التَّنَاقُض وَالِاخْتِلَاف، وَلَا] الأسلوب الْخَاص، وَلَا صرف الْعُقُول عَن الْمُعَارضَة، [وَلَا إيجاز اللَّفْظ أَو كَثْرَة الْمَعْنى وَلَيْسَ إِعْجَازه لمعناه فَقَط، بل هُوَ فِي الْمَعْنى تَامّ كَمَا هُوَ فِي النّظم، وَلَو كَانَ حَاصِلا بِدُونِ النّظم لم يكن مُخْتَصًّا بِالْقُرْآنِ، بل يكون بعض الْأَحَادِيث معجزا أَيْضا، وَهَذَا خرق الْإِجْمَاع] وإفراد الْبشر بِالذكر لمُجَرّد التصدي للمعارضة وَإِلَّا فالمعجزة مَا يكون خَارِجا عَن طوق الْمَخْلُوق وَالْقُرْآن معجز من حَيْثُ إِنَّه كَلَام الله مُطلقًا. حيث إن بعضه كَلَام مُتَكَلم آخر حَكَاهُ الله بِلَفْظِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يلْزم أَن يثبت لَهُ الإعجاز من هَذِه الْحَيْثِيَّة

[والإعجاز ذاتي لِلْقُرْآنِ، فَلَا ينْتَقض بِالْآيَةِ القصيرة، لِأَن مَا كَانَ ذاتيا للمجموع لَا يلْزم أَن يُوجد فِي كل جُزْء، أَلا ترى أَن كَون الْقُرْآن كَلَاما أَو عَرَبيا ذاتيّ لَهُ وَلَا يُوجد ذَلِك فِي كل جُزْء مِنْهُ مثل حرف أَو كلمة]

وَاعْلَم أَن دلَالَة المعجزة على صدق الْمبلغ تتَوَقَّف على امْتنَاع تَأْثِير غير قدرَة الله الْقَدِيمَة فِيهَا، وَأَلا يخبر بِأَنَّهَا فعله فضلا عَن أَنَّهَا تَصْدِيقه، وَالْعلم بذلك الِامْتِنَاع يتَوَقَّف على قَاعِدَة خلق الْأَفْعَال، وَأَن لَا تَأْثِير لقدرة الْعباد، بل لَا مُؤثر فِي الْوُجُود إِلَّا الله، فالمعجزة من أَفعاله تَعَالَى قطعا، وَفِيه أَن من أثبت لغيره قدرَة مُؤثرَة مَعَ تفَاوت مراتبها وتباين آثارها فَهُوَ فِي دلَالَة المعجزة على ورطة الْحيرَة

والمعجزة الحسية: كإحياء الْمَوْتَى ونبع المَاء من الْأَصَابِع، وَهِي للعوام. والعقلية: كَالْعلم بالمغيبات، وَهِي لأولي الْأَلْبَاب والذوقية الحدسية: كالقرآن، وَهِي لأرباب الْقُلُوب، وَفِي الظَّاهِر الْأولى أقوى ثمَّ الثَّانِيَة ثمَّ الثَّالِثَة، وَفِي الْبَاطِن الشرف على الْعَكْس، وَالْإِيمَان بِسَبَب الأولى أقل ثَوابًا، وَتَركه أَشد عقَابًا، ثمَّ الثَّانِيَة ثمَّ الثَّالِثَة، فَهُوَ أَكثر ثَوابًا وَتَركه أقل قَابا، لِأَن الْإِيمَان بِالْغَيْبِ أقوى. والمعجزة الظَّاهِرَة إِدْرَاكهَا أسهل فالإيمان بهَا أيسر، فَيكون أقل ثَوابًا، وَلَا عذر لتاركه فَتَركه أَشد عقَابا. وَأما الْبَاطِنَة فإدراكها أشق، فثواب الْإِيمَان أعظم، لَكِن من لم يُدْركهَا فعذره أوضح من عذر تَارِك المعجزة الظَّاهِرَة، فعقابه أقل من عِقَاب تَارِك الْإِيمَان بالمعجزة الظَّاهِرَة

مراحل التحدي في الإعجاز القرآني:

تدرج القرآن في تحدي القوم على مراحل:

- ❑ المرحلة الأولى: طلب منهم أن يأتوا بحديث مثله حينما قالوا: إنه حديث مُفْترى. فقال الله تعالى: (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) الطور: 34.
- ❑ المرحلة الثانية: طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) هود: 13
- ❑ المرحلة الثالثة: فلما عجزوا، طلب منهم أن يأتوا بسورة مثله، كما جاء ذلك في قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) البقرة: 23
- ❑ المرحلة الرابعة: فلما عجزوا طلب الله منهم أن يأتوا بعشر سور فقال جلَّ ذكره: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) هود: 13
- ❑ المرحلة الخامسة: فلما عجزوا، طلب منهم أن يأتوا بسورة مثله، في قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) البقرة: 23

- ❑ المرحلة السادسة: جاء التحدي النهائي لهم: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا) الإسراء: 88

اتجاهات النقاد في إعجاز القرآن:

بداية العلاقة بين النقد وقضية الإعجاز القرآني:

لم يكن النقد في مساقه العام موجهاً - كما أصبحت البلاغة موجهة - إلى خدمة فكرة الإعجاز، على نحو عامد، ولكن عدم انفصاله عن البلاغة كان من الطبيعي أن يقف به عند تلك الفكرة ذات يوم، أو يجعل وسائله صالحة للوقوف عندها. ولم يختلف النقاد في كون القرآن الكريم معجزا، وإنما اختلفوا في طبيعة إعجاز القرآن الكريم، إلى ثلاثة مذاهب:

1/ مذهب الصرفة:

أول من قال من العلماء بالصرفة إبراهيم بن سيار النظام، (هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظّام البصري، وُلد في البصرة، واختُلِف في عام ولادته اختلافا كبيرا، وتجعل الأقوال ميلاده ما بين عام 160هـ و185 هـ/777م. تتلمذ في الاعتزال على يد أبي الهذيل العلّاف، ثم انفرد عنه وكوّن له مذهباً خاصاً (النظّامية)، وكان أستاذ الجاحظ. توفي في بغداد، واختُلِف أيضاً في زمن وفاته، ما بين عام 221 هـ/836م وعام 229 هـ.)

ذهب النظام إلى أن الله صرف الناس عن معارضة القرآن الكريم، ولم يمنحهم القوة والقدرة والاستطاعة لمثل هذا العمل، فقدرة الإنسان محدودة، وقدرة الله لا حدود لها. يقول النظام "إنّ الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنمّا لم يعارضوه؛ لأنّ الله صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به".

ويبدو أنّ النظام قصد إلى الاعتراف بالإعجاز والبرهنة عليه، وقدّم لذلك تعليلا، إلا أن الكثير من العلماء لم يقبلوا هذا التعليل ورفضوه، وقدّموا الحجج على بطلان هذا الرأي.

2/ مذهب البلاغة: اهتم رجال هذا الاتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم لاعتقادهم أنّ البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز.

- ❑ اشتهر من أصحاب هذا المذهب، ابن قتيبة (ت276هـ)، والرماني (ت386هـ)، العسكري أبو هلال (ت395هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت466هـ)

- ❑ **ابن قتيبة والإعجاز**

- ❑ درس ابن قتيبة الصور البيانية في القرآن الكريم، وقال بالتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد، وبالتفاوت بين الشعراء، غير أن القرآن غير متفاوت الإعجاز، وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، وقد ألمّ برأيه هذا، وبطريقته هذه في الدراسة في كتابه تأويل مشكل القرآن، فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة.

- ❑ ويرى ابن قتيبة أنه يمكن إدراك إعجاز بلاغة القرآن بكثرة المدارسة. قال "وإنما يعرف فضل من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات

- ❑ وحدد هذه الخصائص البلاغية للغة العربية في موضع آخر في كتابه، فقال عن العرب "فلهم المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص

- ❑ فالقرآن الكريم معجزة لأنه أجاد استعمال خصائص اللغة العربية ووصل بها إلى القمة التي تدرك من طرف البشر، على الرغم من تمتع العرب بحاسة بلاغية تجعلهم يميزون بين كلام الله وكلام البشر، إلا أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن.

محاضرات في الأدب الجزائري القديم - د. مسعود بن سايح

❑ **الرماني والإعجاز:**

❑ واتبع الرماني ابن قتيبة في القول ببلاغة القرآن فخص الموضوع برسالة عنوانها النكت في إعجاز القرآن (22). وذهب إلى أن البلاغة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأعلى، الأدنى، وما هو وسط بين الأعلى والأدنى، وشرح كل طبقة على حدة، ورأى أنّ أعلى طبقة هي المعجز، وهي بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة

❑ ثم حصر البلاغة في عشرة أقسام وهي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس، والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. ثم فسر كل قسم مستشهداً بالآيات القرآنية الكريمة.

❑ **العسكري والإعجاز:**

❑ كشف أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين عن التباين بين بلاغة النص المقدس وبلاغة النص البشري، فالقرآن الكريم معجز "بما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها»

❑ ويشترط العسكري لمعرفة إعجاز القرآن البلاغي، معرفة البلاغة العربية وتعلمها حتى يستطيع المرء أن يميز بين مراتب الكلام، ولهذا وضع كتابه ليذلل به من تلك الصعاب. قال: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة.. فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على..

3/ مذهب النظم:

قصر أصحاب هذا المذهب إعجاز القرآن في نظمه، فقد جمع القرآن أفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني.. وعلل الخطابي عجز العلماء السابقين في الوقوف على إعجاز القرآن، بأنهم احتكموا إلى أذواقهم وليس إلى الرأي والمنطق. ومن أعلام هذا المذهب: الجاحظ (ت255هـ)، والخطابي (ت388هـ)، الباقلاني (ت403هـ)، القاضي عبد الجبار(ت415هـ)، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)،

أ)- الجاحظ والإعجاز: لعل الجاحظ أول من قال إن النظم أساس الإعجاز، وقد ألف كتاباً في هذا الموضوع إلا أنه يعدّ من الكتب المفقودة.

ب- الخطابي والإعجاز

- الخطابي لم يقل كما قال الرماني أن بلاغة القرآن تقتصر على النوع الأول وحده، بل ذهب إلى أنها أخذت حصة من كل نوع من الأنواع الثلاثة، فكان من امتزاج تلك الأنماط نمط جديد بين صفتي الفخامة والعذوبة - الفخامة تنتج عن الجزالة والعذوبة تنتج عن السهولة، وهما صفتان كالمتضادتين، فالتوفيق بينهما على نحو لا يحدث نبوة لا يتيسر إلا في القرآن.
- الكلام يقوم بثلاثة أشياء: لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وقد حاز القرآن في هذه الثلاثة معاً غاية الشرف والفضيلة: ففيه أفصح الألفاظ وأعذبها وأجزلها، واحسن التأليف وخير المعاني. " وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير؟
- وقف عند الألفاظ وقفة دل بها على أن كلاً من التأليف والمعنى يعتمد على اللفظ، أو بعبارة أدق على وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به (2) ؛ ولهذا عرج على بعض الألفاظ المتشابهة في المعنى (مثل الشح والبخل.. الخ) ودل على أن اللفظة الواحدة تصلح في موضع لا تصلح فيه الأخرى، فإذا تغيرت أو انتقلت عن موضعها اختل التأليف وتفاوت المعنى.
- اعتمد الخطابي على تفاوت الشاعرين إذا هما تنازعا معنى واحداً، وعلى تميز كل شاعر في ناحية كالأعشى والاخطل في وصف الخمر وذي الرمة في صفة الأطلال والدمن؛ إلا انه استغل هذه المسألة لدحض المعارضة للقرآن وبيان قصورها، ولم يستغلها على طريقة الباقلاني، كما سنرى من بعد.
- ولجأ الخطابي كما لجأ الرماني من قبله إلى الأثر النفسي فقال: " في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه غلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فانك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه.

ج- الباقلاني والإعجاز

- هو الوحيد الذي استطاع أن يفيد إفادة تفصيلية من جهود النقاد السابقين، وأن يطور أثناء بحثه لقضية الإعجاز بعض النواحي النقدية.
- واستقرأ الباقلاني أغلب الدراسات التي سبقته في مؤلفه "إعجاز القرآن" ليثري هذا الاتجاه، فقد اختار هذا الباحث النظم لإثبات الإعجاز، وقال بعدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب.
- وليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز القرآن، بل هناك أمران آخران: أولهما: الطول الذي استوعبه ذلك النظم دون تفاوت. وثانيهما أن هذا النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب.
- بيّن الباقلاني أنّ ما استأثر بتفصيل النقاد في الشعر لا يبلغ شيئاً بجانب بلاغة القرآن؛ ولذلك درس قصيدة لامرئ القيس، وأخرى للبحتري، ثم سورة من القرآن الكريم ليفصح عن رأيه السابق الذكر.
- وهذا الذي ميّزه عن غيره من الدارسين، فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق، وبين الرائع من كلام المخلوق. وقد كان معجباً بكل كلمة ومعنى وأسلوب في القرآن وقف عنده، ونعت ذلك بنعوت المفاضلة دون الإشارة إلى مواطن الفصاحة ولا إلى مواطن الروعة والجمال.

د- القاضي عبد الجبار والإعجاز

- قال إن القرآن انفرد بفصاحة تقوم على جزالة اللفظ وحسن المعنى، وجاء هذا في نظم لم يسبق إليه ليزداد الكلام الفصيح فصاحة*
- واعتنى هذا الباحث بالنظم عناية كبيرة، ورأى أنه المعوّل عليه في إقامة ميزان الكلام، وربط هذا المفهوم باللفظ والمعنى*
- وذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات:
أولا- مفهومها في ذاتها.
ثانيا - مفهومها حين تتداول عليها حركات الإعراب.ثالثا-3- مفهومها حين تأخذ مكاناً خاصاً في الكلام، فتتقدم أو تتأخر، ومن هنا أكدّ على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته، وربط بينه وبين هذه المفهومات الثلاثة.
- ذهب إلى أنّ المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهد العرب من البلاغة، وليس إعجاز القرآن أنه جاء بنظم لم تجر العادة بمثله.
- وبذلك يكون قد كشف عن توجه جديد في دراسة النظم في القرآن الكريم، كاشفاً عن خصائص الإعجاز فيه القائمة على فصاحة اللفظ وحسن المعنى.

هـ- عبد القاهر الجرجاني والإعجاز

- وأولى عبد القاهر الجرجاني هذه المسألة أهمية كبيرة من خلال مؤلفاته (الرسالة الشافية، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة).
- ذهب إلى أن لا ميزة للمفردات في حد ذاتها؛ لأن الناس تواضعت عليها هكذا، وإنما ميزتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات. وقد شبّه النظم بالتأليف والصياغة والبناء والوشي. ورأى أن أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ، على عكس القراءة أو السماع حيث يكون اللفظ هو السابق. وأنزل هذا الدارس الكلام ثلاثة منازل:
1- لفظ استقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه.
2- ونظم اعتمد على ترتيب المعاني وتآخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ.
3- وكلام حوى الحسن من طرفيه، فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة تساوق المعنى وتلاحم الفكرة.
- قال إن القرآن انفرد بفصاحة تقوم على جزالة اللفظ وحسن المعنى، وجاء هذا في نظم لم يسبق إليه ليزداد الكلام الفصيح فصاحة*
- واعتنى هذا الباحث بالنظم عناية كبيرة، ورأى أنه المعوّل عليه في إقامة ميزان الكلام، وربط هذا المفهوم باللفظ والمعنى*
- وذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات:
أولا- مفهومها في ذاتها.
- ثانيا - مفهومها حين تتداول عليها حركات الإعراب.ثالثا-3- مفهومها حين تأخذ مكاناً خاصاً في الكلام، فتتقدم أو تتأخر، ومن هنا أكدّ على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته، وربط بينه وبين هذه المفهومات

محاضرات في النقد الأدبي الحديث - د. مسعود بوبعاية

الثلاثة. الجرجاني ذهب إلى أنّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه وتأليفه، والنظم بالنسبة إليه هو توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم.

- ❑ كما قال بالتفاوت في النظم عند الأدباء في "الرسالة الشافية" ورأى في النوابغ والمتقدمين أن ما أتوا به لا يعدّ معجزاً، وإنمّا المعجز ما عُرف أنه فوق قوى البشر وقدرهم، وضرب المثل بالجاحظ الذي رأى في ما أتى به غير معجز. وهذا هو الفرق بين النبي والعبقري.

نتائج واستخلاص:

إن مذهب النظم قد لقي رواجاً وانتشاراً، لأنه يحقق الإعجاز في كل السور والآيات، بينما مظاهر الإعجاز الأخرى لا تتحقق في كل القرآن الكريم. ساهمت عملية البحث عن الإعجاز في تطور البلاغة وساهمت البلاغة في تطور النقد

محاضرات في النقد الأدبي القديم - د. مسعود بن ساري